لماذا يغرد العندليب؟

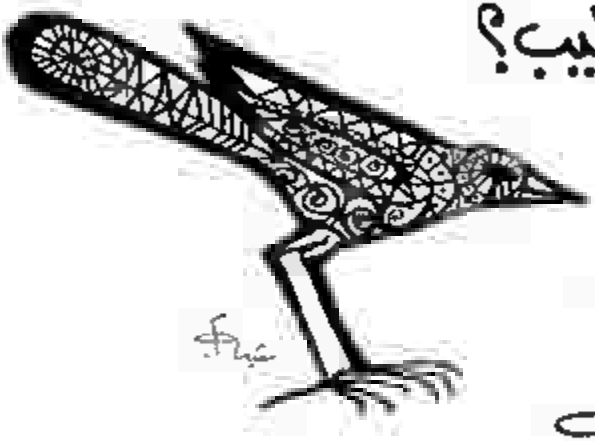

من الأدب الروسي

قصة ميخائيل زوشتشنكو

ترجمة وصفي آل وصفي

ولد ميخائيل زوشتشنكو عام ١٨٩٥ وتوفي عام ١٩٥٨ وكان الكاتب الساخر العظيم في الأدب السوفيتي . ومن أعماله « قصة حياة » و « مغامرات قرد » .

الهي ، ما اصعب الخلق الأدبي !

لابد لنا أن نكدح ، ونتصبب عرقا ، لنتفادى جميع الشراك المنصوبة تحت اقدامنا .

وعلى كل هذا العناء ؟ لمجرد أن نروي قصة غراميات « بيليبكين ـ باربل » .

ومع ذلك فلا هو ابن عم ، ولا هو أخ للمؤلف . والمؤلف لم يقترض منه مالا ، وليس ثمة ما يجمع بينهما على الاطلاق . بل ان أمر هذا البيليبكين اذا شئنا الحقيقة لا يعنيه في شيء . لهذا فهو لن يتلهى باستعمال ما على لوحته من الوان عاية في الجمال لتصويره خاصة وانه لم يعد يذكر جيدا مظهره الخارجي .

والشخصيات الأخرى في هذه القصة، على اختلاف أهميتها ، لم تحظ أيضا من المؤلف الا بدراسة ضئيلة . لا يستثنى منها سوى « ليريت » لأسباب خاصة وشخصية تماما . أما أخوها « ميشيل » فقد بات اقل مما كان رسوخا في ذاكرته . وقد كان فتى وقحا متهجما متكبرا سمحا . ولن يعيدنا البته ان نتوسع في وصفه . أما المحور ، أم ليريت ـ ان جاز التعبير ـ فالقارىء نفسه لن يعتقد شيئا اذا لم يعرفها ـ بالاضافة الى ان رسم لوحة حية أصيلة لمحور من الصعوبة بمكان لقد كانت ـ كما يقولون ، محورا ـ لا شيء بعد ذلك .

والمؤلف ، بداهة ، ما كان ليشرع في كتابة هذه القصة لو لم يكن يعرف غير هذه المعلومات الضحلة عن ابطالها . والواقع أن لديه وفرة غيرها . نحصره على سبيل المثال صورة كاملة لمجريات حياتهم البسيطة ، منزلهم الصغير كوخهم المعتم برقم ٢٢ .

كما سنحيل ايضا بكل جلاء باطن هذا المنزل ، ما به من أثاث و « روحه »

ان صح التعبير ، ثلاث حجرات صغيرة ، ارضية حشية مفروشة ، معرف طراز « بيكر » ، احد تلك المعازف المرعبة اريكة موقها قط لا يرتل عنها ابدا ، ذراع ساعة متعطل فوق المدفأة تحت ناقوس زجاجي يغشاه التراب من كل جانب ، مرآة عكرة ملطخة بآثار الذباب تنسخ كل شيء ، وصندوق ضخم سمعت منه صوت الصراصير والذباب الميت .

اي كدر أن تضطر الى الحياة هنالك !

انك لترى ان تبعثر مطبخهم كل الصباح ، هو مرددم دائما بثياب مغسولة منشورة لتجف على حبال مشدودة به ، تضع فيه العجوز أمام الموقد دائما على تفشير شيء ما كالبطاطس مثلا والقشر يتساقط عن السكين في أشرطة حلزونية ..

ولا يظن القارىء ، بخاصة ، أن المؤلف متحمس يسرد كل تلك التفاصيل السطحية ، ابدا ، فليس ثمة ما هو جميل او شاعري في هذه الذكريات المهزلة لكن المؤلف يعرف مثل تلك الدخائل ، وقد عاش فيها ، ليس هذا مهربا ، على التقمص ، انه ليستشير المرعبة في البكاء ، ما ان يدخل المطبخ حتى يلطم أنفك حتما شيء من الثياب المبللة ، وحينما لو يكون شيئا ملائما مطهرا بريئا من مظاهر النظافة البشرية ـ ذلك أنه لن يكون في العالم الا روحا من الخوارب العديمة ـ أف ! أية قذارة ! مما لاصلة له بالأدب ، أن يتقد لدى آل

ولقد قتلت المؤلف بعض الطروف روديوكف ؟ هؤلاء ، وفي كل مرة كان يظل مذهولا ويتعذر عليه أن يدرك كيف أمكن أن تردهر في ذلك الكوخ تلك الشابة البديعة ، تلك السوسنة ، برغم الورده ذلك الذي يدعى ليزيت روديوكف

كانت تستأهل الرثاء حقا ..

وسوف نعود الى التحدث عنها بعد قليل ، وبالتفصيل ، اما الآن فلا بد لنا من الكلام قليلا عن المواطن « نازيل بيليتكين » ـ اي نوع من الأشخاص كان ؟ من اين أتى ؟ ما هي آراؤه السياسية ؟ ما طبيعة علاقته بآل روديوكف ؟ ألم يكن قريبا لهم ؟

لا ، لم تكن لهم به صلة قرابة ، فلقد دخل حياتهم بمحض الصدفة ودون اي تدبير سابق .

والمؤلف وان كان قد رسم ملامح وسمات نازيل ، كما قال من قبل ، الا انه يستطيع ان يتقمص عنه فستعيد له بوضوح خصائص بعينها .

كان يمشي ببطء دائما ، لكأنما هو مستغرق في تفكير عميق ، ويداه خلف ظهره ، لا يكاد يكف عن الطرف بعينيه ، وظهره محنى على الدوام يشوه تنقل الحياة أغلب الظن ، كما حذاه متآكلان باستمرار ، مقعران الى الداخل

وكان تعليمه ، قياسا على مظهره ، قد بلغ على الأقل حد الشهادة الابتدائية .

كان مجهول الماضي ، فقد وصل الى موسكو وقت الثورة ولم يكن يتحدث عن سابق حياته ابدا .

وكانت الأسباب التي حدت به الى الهجرة من العاصمة قليلة الوضوح ـ ترى هل فعل ذلك لأن الريف كان يبدو له أكثر قدرة على اشباع جوعه ؟ أم أن الأمر كان مجرد اشتياق الى المغامرة والآفاق المجهولة ؟ الشيطان وحده يعرف !

أرجح ان الجوع هو الذي طرده من العاصمة ، فقد دأب عند مجيئه على

التوجه الى السوق كل يوم ليجدق في اكوام الطعام بنظرات شرهة .

أما مصدر رزقه في تلك الأيام فلا يزال بالنسبة للمؤلف لغزا مستعصيا . ترى أكان يستجدي أم كان يلتقط سدادات الزجاجات ليبيعها ؟ من يدري ؟

مهما يكن من أمر فقد ساءت حالته فبليت ثيابه وتساقط شعر رأسه وكان يسير على رجل ، يتلفت حوله بين لحظة وأخرى وهو يسحب قدميه حتى عياءه ، لم يعد يطرف لهما ، وجمدت نظرته بشكل مجنون .

وفجأة انتعشت حاله وارتفع شأنه دون أسباب معروفة . وفي ليلة قصتنا الغرامية هذه كان قد بلغ مركزا اجتماعيا مرموقا . كان موظفا حكوميا يتقاضى مرتبا مناسبا وعلاوة معتبرة لقاء المعيشة .

واكتسب بدنه بعض الاستدارة ، امتص - ان جاز القول - عصارات منعشة فعاد يطرف بعينيه كثيرا ويتشاط .

بات يمشي بخطوات واثقة كمن خبر الدنيا ، من انتزع حقه في الحياة ويعرف لنفسه قدرها .

والواقع أنه كان لا يزال وقت هذه الأحداث رجلا جد مقبول ، في الثانية والثلاثين .

كان كثيرا ما ينطلق متريضا ساعات طويلة . وهو يلوح بعصاه فيطيح بما يصادفه من أزهار وعشب أو حتى مجرد الأوراق . وأحيانا ما كان يجلس في أريكة بالميدان ويروح يتمطى ويمط رقبته وهو يبتسم في غبطة . الا أن أحدا لم يعرف أبدا شيئا مما كان يكتنل جمجمته من أفكار ومشروعات عظيمة . ومن الخاطر أيضا أنه لم يكن يفكر في شيء ، بل يستسلم ببساطة لشعور غامر بالرضا عن ذات وجوده ، أو أنه ، وهذا أكثر احتمالا كان يبحث وسائل تغيير مسكنه .

ذلك أنه ولا مفر من الاعتراف كان يسكن عند « فولوساتوف » الشماس المشتق ، وهو كموظف حكومي كان مهما لقلق بالغ شيخة لاضطراره الى مساكنة شخص مشكوك فيه الى هذا الحد ، من وجهة النظر السياسية .

كان يسأل معارفه المرة بعد المرة ، عساه يعلم ما اذا كان أحدهم يدري مصادفة بوجود غرفة شاغرة حيث أنه لم يعد يطيق ، على حد قوله ، حيرة ذلك مبلغ شبهتها .

وأخيرا دله أحدهم بروح طيبة على غرفة شاغرة ، وان تكن حد صغيرة حقا الا أنها عند آل روندوكف المحللين وعلى الفور ، بمجرد أن عاين المحجرة ، جاء نيلبكين بالسماء ليحمل أثاث غرفته ..

ولم يكن الشماس بحاجة أبدا الى هذا المستأجر ، ولكن ما ان علم بما انتقاله حتى بدا مهانا في أطيب مشاعره . وراح يقسم ، بل ويهدد بكسر حيشوم ذلك النيلبكين النحس في أول مناسبة ! وطوال الوقت الذي قضاه نابريل في تحميل مقتنياته فوق عربة اليد ، ظل ملازما النافذة يقهقه ليفهم الجميع حيدا الى أي حد لا يهمه ذلك الرحيل .

أما زوجة الشماس فكانت تخرج الى الفناء ، من وقت الى آخر ، لتصيح وهي ترمي شيئا ما فوق العربة

« مع ألف سلامة ! بعدا ! سلمك ! أحد لا تسلمك بك ! » .

بينما الجيران ، والمستكمون ، يتبادلون من الضحك وهم يتبادلون تعليقات مشينة عن مسلات غرامية يزعمونها بين باريل وروحة الشماس . والمؤلف يأسف لعجزه عن أن يقول في ذلك شيئا ، وهو لا يعرف عنه شيئا . بالاضافة الى أنه لا يميل الى نشر الفضائح ، وخاصة في عمل أدبي .

أما عرفة أن روبدوكف فكانت تؤجر بلا أي رغبة في الكسب ، وحتى دون ما حاجة فعلية . كانت العجوز في الحقيقة تخشى ، وأزمة المساكن قائمة ، أن يصيبها تكليف اسكان محتمل قد يضطرها الى قبول من لا ترضى عنه .

ولقد أراد بيليكين من جانبه أن يستغل الموقف لمصلحته بعض الشيء ، وبينما هو يمر أمام المعرف البيكر نظر اليه باستياء ولا حظ بعباره تتعقر الى اللطف أن تلك الآلة كما لو قلما عديمة السمع . وأنه هو ، بيليكين ، الرجل الرزين ، الذي عركته الدنيا ، وقد كان بالطبيعة التي دفتها المدفعية الثقيلة ، لا يمكنه احتمال صوصاء غير مألوفة ، مستفزة .

واستند العصب بالعجوز فاقحمته قائلة ان ذلك المعرف قائم في مكانه منذ أكثر من اربعين عاما ، وانها لن تحطمه ارضاء لخاطر بيليكين ولن تنزع أوتاره ودواساته ، خاصة وان ليريت تتعلم العزف عليه ولربما كان في ذلك كل مستقبلها .

عندئذ تراجع بيليكين ، يتظاهر بأنه حتى لم يعبر عن رغبته الا كرجاء متواضع وأنه لم يبدها في صيغة الأمر غير ان الصبور نفسه نفد ، ولولا ان فكرة تكليف الاسكان المحتمل ارتدت الى خاطرها فجأة لا تنتهي بها الأمر الى طرد بيليكين .

وهكذا انتقل باريل الى غرفته الجديدة صباحا ، وقضى اليوم بطوله في ترتيب مقتنياته .

ومضى يومان او ثلاثة دون تغيير . يخرج باريل الى مكتبه في الصباح ويعود متأخرا ليدرع غرفته جيئة وذهابا وهو يحرر جذاذه — ثم يرقد ، يصمم ويتمم فيخطط تخطيطا رقيقا .

وعاشت ليريت تلك الأيام كروح معذبة ، تستفهم من امها وأخيها عن شخصية النزيل ، عن عاداته ، عما اذا كان يدخن الغليون ، بل وتسأل ولا من يعرف لماذا ان لم يكن قد عمل ضابطا بالبحرية .

وأخيرا شاهدته في اليوم الثالث لأول مرة .

فكر باريل كعادته الى المطبخ ليغتسل في قميص نومه وحمالته السائبة متأرجح من جانب الى آخر ، يمسك بيساره منشفة وقطعة من الصابون ويمل بيسراه شعره الذي غسوشه الرقاد .

وكانت ليريت ، بعميصها ، قد شرعت في اعداد الشاي — لما ان لمحته حتى اطلقت صيحة خافتة وحملقت من رداتها ووثبت جانبا .

والواقع انها كانت ذلك الصباح بديعة بحق ، تمثل تلك الغوصى المحببة التي تعتري المرأة وقد استيقظت لتوها ، في قدميها خف ، لم تمتشل بعد ، واحدث في تدبير عملها .

هذا النوع من النساء لا يكرهه المؤلف ، وليس ثمة ما يحفظه عليه

وعندما دخل ذلك المساء ليس فيهن ما هو فائق ولا حتى ما هو جذاب ، تجدهن بصفة عامة بدينات ، نظراتهن بليدة ، بلا حيوية ، بلا مزاح ، بلا دلال ، حركاتهن مزاجية ، ثيابهن مهملة ، وشعورهن مشعثة ، الواقع أن ذلك لما يثير الاشمئزاز أيضا ... ولكن ماذا تريدون ؟

انه لأمر عجيب ... ولكن المرأة الشابة ، شبيهة الدمية ، بدعة القصص الغربي ، لا تحلو للمؤلف ، تواجهك، دائما ، بواحدة من تلك « التعريجات» ـ ليحطمها الشيطان ! ـ التي لا تجرؤ أن تلمسها محافة الفضيحة ، كذلك ثوبها ، يشرق أو يتسع عند ادنى حركة ، فيم اذن خلقت ؟ وانى تكون اذن سرات ومباهج الحياة في ظل مثل تلك التحفظات ؟

ان المؤلف ليحب الثقافة الغربية ويعجب بها ، بعد ان له فيما يتعلق بالنساء ـ كما يلاحظون ـ رأيا شخصيا تماما ... ويبدو أن بيليبكين كان يعتنق نفس الآراء في هذا الشأن !

أيا كان الأمر فقد تسمر امام ليريت ، وقد فقد الاعجاب بعض الشيء ، لا يفكر في رفع حمالته ...

الا أن هذا لم يستمر سوى دقيقة . فقد اطلقت ليريت آهة واهنة وخرجت تهرول وهي تحاول ان تنظم فوضى شعرها .

وفي المساء حمل بيليبكين يتمشى في الردهة عدة مرات ، دون سرور ، على أمل ان يقابل هناك ليريت ... ولكن دون جدوى .

لم يلقها الا متأخرا بالليل ، عندما ذهب الى المطبخ . وكرجل رفيق المعاشية حياها باحترام . وراسه منعطف قليلا، وأتى بهذه الحركة المهيبة التي تصدر باتفاق عما نحسه من اعجاب وسرور .

اعقب ذلك عدة مقابلات مشابهة ، في الردهة والمطبخ ، قربت ما بينهما الى حد كبير .

اصبح باريل الآن يزور في المنزل مباشرة ، حيث يستمع الى اي وزنة تريدها ليريت على المعزف .. ويرجوها أن تقع شيئا « أكثر حداثة » على حد قوله .

اذ ذاك كانت تعزف « فالسا » أو اي « رقصة أخرى ، او تخبط بعض الحان المقطوعة الثانية ، الثالثة أو الرابعة ـ الله وحده يعلم كم يوجد منها ! ـ من مسحبات « ليست » .

وكان « بيليبكين » ـ الرجل الرزين، الذي عركته الدنيا ، يصغت اليها كما لو كان يسمع لأول مرة دقات المعزف المرتجفة المثار ـ حتى اذا ما لاح بعرعته أخيرا ، واتخذ جلسة المستعرق ، جعل يفكر في نهجة المشي .

من ذلك اليوم بدات حياة افضل لميشيل روبدوكف ! مرات عديدة كان باريل يعطيه أربعة دراهم ، بل لقد أعطاه مرة عشرة دراهم ، وهو يطلب منه أن يصغر كلما كانت المحور في المطبخ وليريت منفردة في غرفتها .

فيم كانت حاجة باريل الى تلك المعلومات ، ذلك ما سوف يظل لغزا على الدوام . لقد كانت العجوز تتأمل العاشقين منتهجة ، تتوقع أن يروحهما في الخريف فتتخلص أخيرا من ليريت أما ميشيل ، فدون ان يحاول استيضاح بواطن الأمور كان يستجيب لدوافعه

الخاصة ليصفر ست او سبع مرات كل مساء وهكذا يضطر باريل أن يتريض من غرفة الى أخرى .

وكان باريل يدخل غرفة ليزيت فيجلس الى جوارها ويبادلها بعض عبارات تافهة ، ثم يسألها أن تعزف شيئا . وهناك ، امام المعزف ، بعد ان تنتهي من العزف ، كان يضع يديه الجميلتين ، يدي من عركته الدنيا ، ودقته المدفعية الثقيلة ، فوق يدي الفتاة الناعمة البيضاوين الرقيقتين .. ويطلب منها ان تغني عليه تاريخ حياتها ، وهو يبدي اهتماما عظيما بماضيها . واحيانا ما كان يتحرا ويسألها ان كانت قد احست رعشة الحب الحقيقي من قبل ، أم انها تعرفها للمرة الأولى .

وكانت ليزيت تبتسم في خجل ، واصابعها تنزلق فوق مفاتيح المعزف في هدوء ، وتجيبه بصوت خافت « لست أدري »

٣ -

راحا يتحابان بشغف ..

لم يكن يسعهما أن يلتقيا بلا دموع ، ومع كل لقاء كانا يحسان بوحشة جديدة من السعادة تقمرهما .

والواقع ان ليليتكي احيانا ما كان يتأمل نفسه في المرآة بشيء من الفزع وهو يفكر في دهول أنه .. هو ، الرجل الرزين ، الذي عركته الدنيا ، ودقته المدفعية الثقيلة ، وقاسى ما قاسى ليسترد حقه في الحياة ، حرى أن يضحي وجوده كله بسهولة في سبيل نزوة واحدة عابرة لتلك الشابة .

وقد يتذكر من مرى تجياته من النساء ، حتى أخرهن ، روحة الشماس ولا مناص من الاعتراف على أي حال بأنه كان على صلة بها ، كان باريل يؤكد لنفسه أنه الآن يقطف عامه الثاني والثلاثين يعرف أخير الأمر ما هو الحب الصادق وما هي عذابات العواطد الحقيقية .

وليس ثمة من يعرف لماذا ، الروح طبيعي الى المعاناة الدهنية المجردة أم نفحة من نفحات الربيع ، أحس باريل احساسا واضحا أن كل شيء كان عبثا ودونما اذا ما قورن بذلك الحب العظيم

أما هو ، الرجل الساحر بعض الشيء ، الذي عركته الدنيا ، ودقته المدفعية .. الخ .. ، وواجه الموت مرات كثيرة ، فقد أخذ ينظم الأشعار وكتب قصائد عديدة بل وأنشأ مجلة أيضا

انني لا اعرف اعماله ، بيد أن احدى قصائده وقعت تحت يدي والفضل للسيد « كراسنر » سكرتير تحرير مجلة « حكم البروليتاريا » ، كان قد بعث بها الى المحرر تحت عنوان « عنها واليها » ، ولكنها رفضت باعتبارها لا تواتم روح عهدنا ..

والمؤلف لن يسأم القراء بمقتطفات طويلة ، انما يكتفي بتقديم الفقرتين الأخيرتين منها .. ولتقل أكثرها نصا

في قلبه العظيم ، كشعار ..
قد نقش « فلاح ، غرام » ، وصورتك ينظم .
حياته كلها ، على الدوام ..
انا لير ، يا ليرة ..
بقبلتك
حقا ، قد احترقت .

لست أدري ، فقد تكون هذه الأبيات

لا بأس بها من ناحية الشكل ، الا انني متفق مع المحرر انها فعلا لا تواكب روح عهدنا ..

ولقد هجر بيليكين ، فيما بعد ، الشعر وصيرة الشعراء المخاتلة ، التي اعماله غير آسف ورجع يعيش حياة عادية ، لا يسطر أفكاره الخرقاء فوق الورق

كان باريل وليريت يلتقيان كل يوم ويتمشيان ، ويلحقهما الليل وهما جالسان في الطرقات أو الميادين المهجورة ، وأحيانا ما كانا يهبطان الى ضفة النهر ، وهناك وهما جالسان فوق الرمال كانا يتأملان التيار المندفع في شجرة ، ومن وقت الى آخر كانا يسهدان برقة ، وتتماسك يداهما ، وقد بهرهما جمال الطبيعة وصفاء السماء فوق رأسيهما ،

كان ذلك يبدو لهما غريبا ، فانا لا سيما وأنهما كانا يحالان رؤيته لاول مرة ،

وبعض الأيام كانا يتجاوزان المدينة ، ويتجولان في الغابة ، هنالك كانا يسيران على مهل ، وقد تشابكت اصابعهما ، يرق قلباهما لكل شيء حتى لأرنب عادي يصبح فجأة احدى عجائب الطبيعة ،

في تلك اللحظات كان باريل ، وقد هزه فيض من البهجة ، يسقط على ركبتيه ليقبل من الأرض آثار خطوات ليريت

وهناك في السماء كان القمر يتلألأ ساكنا والليل يغشاهما بعموصه ، والطرائر يصيح ، والغابة تلفظ ، والهواء يبدو مجللا بالرقة والسلام ،

كانت تلف على ساعاتها المفصلة

الا أنه حدث اثناء احدى تلك النوبات المسحورة ، في ليلة رطبة ، أن أحد البرد بازيل عبر الحريص فاضطره ان يلوذ بالفراش .

وفي اليوم التالي أصابته الحمى وألم فظيع في حلقه ، وقبيل الليل بدأت رأسه تتورم بافراط .

وأقامت ليريت الى جواره ، باكية محلولة الشعر ، في قدميها خف ، تضطرب بين الفراش والمائدة لا تدري كيف تتصرف وماذا تفعل لتخفف من آلامه .

حتى العجوز كانت تأتي الى غرفته عدة مرات كل يوم ، تسأل ان كان المريض لا يرغب في شيء من مرق البرقوق ، شافية كل داء ـ في رأيها ـ من الأمراض المعدية .

وبعد يومين اتخذت رأس بازيل حجما مخيفا ، لدرجة ان ليريت حرت تبحث عن طبيب ، وجاء الطبيب فحص المريض ووصف عدة أدوية ، ثم انصرف مساء ، لم تكن لديهم أوراقا مالية فدفعوا له أجره دراهم عليظة .

ولم يكد الطبيب ينصرف حتى هرعت وراءه ليريت ، وأدركته في الطريق لتصمم وهي تمرك يديها

ـ أما يزال ثمة أمل اذن ؟ لنعلم يا دكتور ، انني لن أبقى بعد موت هذا الرجل .

فأجابها الطبيب عبر مكترث ، وقد ألف انفعالات أمثالها حالات اليأس ، قائلا ان التهاب الغدة النكفية ليس مميتا

ورجعت ليريت الى المنزل وراحت تعتني بالمريض باخلاص لا يعرف الكلل ولا تخشى حتى العدوى .

وفي اليوم الأول لم يكن بازيل ليجرؤ على رفع رأسه عن الوسادة ، فكان يحس عنقه المتورم وهو يتساءل في هلع ان لم تكن ليريت منصرفة عن حبه بعد ما شاهدته في تلك الحالة الشنيعة والمثيرة للاشمئزاز .

غير ان الشابة كانت تطمئنه ، قائلة انه في رأيها أكثر مهابة مما كان قبل مرضه ، فيضحك بارتياح وعرفان ، وهو يكرر أن ذلك المرض كان المحك لمراهما .

٤ -

كان عراما عجيبا .

يوم أن بارح بيلينكن فراش مرضه واستعاد رأسه وعنقه هيئتهما الطبيعية ، خيل اليه أن ليريت قد افتقدته من مرت محقق ، واحدث علاقتهما طابعا أكثر وقارا ، بل وأستطيع أن اقول أكثر ثبلا ..

ولهذا فقد تناول بازيل يد ليريت ، أحد أيام شفائه الأولى ، يرجوها بلهجة من اتخذ قرار لا رجعة فيه ألا تقاطعه بردود سخيفة أو ساخرة ، ثم القى بحديث جد طويل وطيلن ، يشرح كم يعرف .. هو ، بازيل ، معنى الصراع من أجل الحياة ، وكيف أنه كان فيما مضى عرا يستخف بالحياة ، الأمر الذي قاسى بسببه كثيرا ، الا أنه اليوم وقد تجاوز الثلاثين يشعر بالحكمة ويعرف كيف يجب أن يعيش ، أنه يدرك جميع القوانين القاسية التي تحكم المجتمع ، وانه لهذا وبعد تقدير كافة نتائج تصرفه

قد قرر ان يحدث تغييرا ذا شأن في حياته .

موعز العول ان بيليكين تقدم الى ليريت يطلب يدها لزواج رسمي ، ملقيا نظرها حينذا الى أنه منذ اليوم لم يعد ثمة ما يوجب قلقها على مستقبلها وان كانت تستطيع أن تسهم بعملها في ثروتهما المشتركة .

وبعد أن تصنعت وتحفظت قليلا ، بعد أن تحدثت عن جمال الحب الحر ، استجابت ليريت لطلبه بسرور غير مخفى . ثم أضافت انها تنتظر ذلك من مدة طويلة ، وانه لو لم يتقدم بهذا الطلب لكان أحقر الحقراء ، وأنه بعد التفكير في كل اعتبار ، رغم جمال الحب الحر ، فالزواج شيء آخر .

بعد ذلك هرعت ليريت الى المطبخ لتنقل البشرى السعيد الى أمها ، ومن هناك الى الجيران تدعوهم الى العرس الذي كان لابد مقتصرا ، كما هو الواجب ، على اقرب المقربين ..

وهناها الجيران بحرارة ، بالطبع في قولهم ان لها حقا مدة طويلة في انتظار هذا الحادث وانه لمن التوفيق أن تلقى آخر الأمر غاية لحياتها .

ودرفت الأم العجوز بطبيعة الحال بعض الدموع ، وقامت تبحث عن بيليكين لتتشبث من الأمر بنفسها .

وأيد تاريل الخبر ، وهو يستأذنها في أن يبشرها ، الوالدة ، . فأكدت له العجوز وهي تبكي وتتمخط في مئزرتها أن لها من العمر ثلاثة وخمسين عاما الا أن ذلك اليوم هو أسعد أيام حياتها ، وطفقت تدورها في أن تناديه «تاريل» مجردا — الامر الذي ارتضاه بيليكين عن طيب خاطر .

أما مشسسل روبدوكف فقد تلقى الخبر بغير اكتراث ، وانصرف لتوه يحوب الطرقات في صحبة من الأوغاد .

منذ ذلك اليوم لم يعد العاشقان يجرحان للنزهة ، فقد كانا يلزمان المنزل ويقضيان وقتهما في مناقشة برنامج حياتهما المشتركة .

وحدث ، أثناء احدى تلك المناقشات ، أن أخذ تاريل ينظم عرفتهما المستقبلة ، فتجادلا طويلا ، بانفعال ، حول موضع كل من الفراش وحوض الاغتسال ..

جعل تاريل يكرر دون توقف أنه يجب الا يأتيا حماقة فيضعا الحوض في أحد الأركان .. يقول :

— هذا مستحيل ، الناس كلهم تفعل ذلك . انه لأجمل تنسيقا بكثير أن نضع في الركن صيوان الملابس الصغير الذي سوف تهبنا اياه الوالدة ، ذلك الصيوان المغطى بالمفرش المخرم .

وتقاطعه ليريت :

— الصيوان في الركن ، ذلك بالضبط هو المستحيل — ثم ان الصيوان تملكه أمي وليس من المؤكد أنها سوف تهبنا اياه .

— هناك حماقة ! لمر كيف يمكن أن نتناساه عليها — ومع ذلك فنحن لا يسعنا أن نحتفظ بقمصاننا فوق حافة النافذة ، أليس كذلك ؟

— أنا راغبة فيه ، تاريل ، فحدث عنه أمي . قل لها صراحة ، ودون حرج : والدتي ، سوف تهبنا الصيوان — أليس كذلك ؟

ـ الحق انه لصعب ان أتعب نفسي ولكن ان كنت تصرين يمكنني ان أذهب اليها فورا .

وذهب يطلب الصعود في المطبخ . ولما كان الوقت قد متأخر فقد وجدها نائمة . وراح يهزها طويلا ، الا أنها لم تكن تبلغ حد اليقظة وفهم ما يراد منها .. فطفق باريل يخاطبها بصرامة

ـ عمتي . أفيقي ، يا والدتي ايمكنك ليريت وأنا ، ان نطمئن الى قدر من الرفاهية ؟ أجل أم لا ؟ فمصالحنا لا يمكن أن تظل مع ذلك على حالة المأساة . أليس كذلك ؟

وما ان ادركت العجوز بصعوبة ما يراد منها حتى صرخت تنتي قائلة ان الصبيان من واحد وخمسين عاما وهو يشتغل نفس الموضع ، وانه ليس لديها أية رغبة في ان تجرده من مكان الى آخر وانه كان عليه مع ذلك ان يفهم هذا ولا يضايقها بمقترحات شاذة الى هذا الحد .

عندئذ أخذ باريل يغيرها . مفهما اياها جيدا أنه .. هو ، الرجل الذي عركته الدنيا ، ودفعته للدعيه الثقيلة يستحق مع ذلك حياة هادئة ومريحة بقول

وتعد على بأحديه معك الى القبر يا والدتي أليس كذلك ؟

ـ لا لا ، لن أهب الصبيان . ليس عليك ، بعد موتي ، الا ان تأخذ ما تريد

فيصيح باريل مقهورا

ـ بعد موتك .. فلننتظر اذن .

وقد رأت العجوز أن الأمر أصبح خطيرا فقد انفجرت تبكي ، وتنوح ، واقترحت أن يفصل في الأمر غدا طفل طاهر ونزيه ـ تعني ميشيل ـ خاصة وأنه الوريث الذكر الوحيد للعائلة والصبيان من حقه قانونا .

فلما أيقظا ميشيل أبى أن يسمع من الأمر شيئا .. قائلا

ـ مقابل الدراهم الأربعة التي منحني اياها كان يريد الصبيان ما أخشاه ، انه أغلى من ذلك .

اذ ذاك صفق باريل الباب ، ورجع الى ليريت يأبيها تأبيا فارسا . معلنا بلهجة قاطعة أنه بدون الصبيان تنهار حياته نهائيا وأنه مهما كلفه الأمر فلن يتراجع خطوة واحدة ولن يتنازل أبدا عن مبدئه .

وأخذت ليريت تجري حائرة بين باريل وأمها ، ترجوهما أن يتوصلا الى اتفاق .. بل وتعرض ارضاء للطرفين أن تغير موضع الصبيان كل أسبوع .

حينئذ أشار باريل على ليريت أن ترقد حتى يمكنها ، في الغد ، بجهود متنبهة ، أن تبحث وتحل تلك المعضلة الخطيرة .

ولم يأت الفجر بجديد .

فقد اعلنت العجوز بكل قوتها ـ في غضب متناه ، أنها الآن تعرف لعبة السيد بيليكين وأنه اذا كان يتشدد اليوم في طلب الصبيان فهو قادر فيما بعد ، أن يقطع حمامته غير تقطيع !

وظلت ليريت تصيح باكتئاب وهي تجري من الواحد الى الآخر ترجوهما أن يكفا عن التشارع ويمحصا المسألة من جميع وجوهها .

عند هذا الحد انفجر باريل يصيح أنه سوف يتقدم بشكوى ، أنه سوف يطلب اعتقال العجوز لقذف وتلميحات مخزية بحقه .

بيد أن العجوز ، غير راغبة في الهدوء ، تمادت قائلة انهما بلغت من

الصغير ما يستمع بهدوء ـ دون حتى أن ترفع صوتها ـ بأن تواجه الناس جميعا برأيها . وان باريل قد تناول معهم العشاء ثلاث مرات وانه حتى لم يكلف نفسه عناء تقديم أدنى شيء مقابل ذلك. هذا هو !

فاستبد الانفعال بسباريل ، وأحاب بمرارة وسخرية أنه خلال زواجه مع ليريت قد اشترى لهما مرارا عديدة أنواعا من الحلوى ، مرتين اشترى لها باقات من الزهور ، وانه حتى لم يفكر في أن يفتح فمه لطلب مقابلا .

الا أن ليريت أعلنت عندئذ ـ وهي تمص سكتيها ، أنه يكذب بلا حياء ، وانه لم يقدم لها ابدا غير بعض الحلوى الرخيصة مرة أو مرتين وباقة واحدة متواضعة من البنفسج لم يكد يشرق عليها الصباح حتى كانت قد ذبلت تماما .

ثم غادرت الغرفة وهي تبكي وتركت كل شيء معلقا .

وأراد باريل أن يهرع خلفها ، يعتذر عما استباحه لنفسه من مجاملة ، الا أن الأمر انتهى به وقد هاجمته الحيرة الى معاملتها كعجوز شرسة وغادر المنزل بعد أن بصق في وجهها ـ ولم يرجع الا بعد يومين ، ليعلن بلهجة رسمية وفاترة أنه لم يعد يرى من اللائق سكنى ذلك الشقة .

بعد ذلك مباشرة نقل محتوياته الى المنزل المجاور ، ذلك المنزل الذي تسكنه أسرة « أرفشيكوف » . اما ليريت فقد ظلت حبيسة غرفتها بطريقة مسرحية لمدة يومين ، وفيما بعد تواجه مع « ماري أرفشيكوف » وكان باريل اذا ما مر بليريت حياها بأدب في فتور دون أن يتوقف .

د ـ هكذا ينتهي غرامهما

ولا شك انه في أزمنة أخرى ، بعد ٣٠٠ سنة ربما ، لن ينتهي هذا الغرام هكذا ... بل يتفتح كباقة من الورود الرائعة والمعطرة .

غير ان الحياة ، كما كان يقول باريل تحكمها قوانين قاسية ...

اما وقد حتمت قصته فالمؤلف يرى نفسه مضطرا الى الاعتراف بأنه وهو يروي هذه القصة الغرامية البسيطة ، مأخوذا بأطوار الأبطال ، قد نسي تماما الصندليب الذي ذكره بذلك الغموض في العنوان .

انه ليخشى ان يعترض قارئ أو حتى ناقد حصيف ، قائلا

ـ اسمح لي ، ولكن أين هو الصندليب اذن ؟ أترى ؟ انك لتريد ان تعزي القارئ بعنوان يغيض فالوعود !

وانه لمن الصعب ، بلا شك ، ان نحكم من جديد كل أحداث قصة هذا الغرام . وأنا حتى لن أحاول ذلك ، الا أنني أود ان اضيف للاعتذار حادثا عارضا .

كان ذلك ابان ذروة غرامهما ، وهما في أوج عاطفتهما ، عندما كان باريل وليريت يتسكعان في الغابة ليلا ، هناك وهما يستسلمان الى صباح الصرار ، أو تغريد الصندليب ، كانا يسكنان بلا حركة لدقائق طويلة ، وقد تماسكت ذراعا ، لا ينبسان بكلمة .

ثم تتساءل ليريت همسا .

ـ باريل ـ حبيبي ، لماذا يغرد الصندليب ؟ .

فيجيبها باريل

ـ لماذا يغرد ؟ همسا ... لأنه يريد ان يأكل دودة ـ قطعا .